من تراب الطريق (٤٠١)

إن تكونوا تألمون فإنهم (*) يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون .

حين تلم النوازل وتجتمع الآلام ، من غدر وخيانة وجحود ونكران الأصدقاء ، كثيرًا ما يأتيني بغير استدعاء هتاف صامت منبه لهذه الآية الكريمة : ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء ١٠٤] .. الصادق الأمين النزيه الكريم ممتحن فى هذه النوازل فى شيمه وسجاياه ، وفى احتسابه وصبره ، ولكنه فى رحلة معاناته لا ينقطع رجاؤه فى كفكفة الزمن وتطبيب الأيام وعناية الله التى تحيطه وترعاه . بينما الغادر الخائن لا يتذرع بصبر لأنه لا شيء يصبر عليه ، ولا يأمل فى رجاء ، فقد فعل ما أراد ، وأتى ما أساغه لنفسه متسلحًا بحيلٍ تبريريّة وصفها علماء النفس بأنها حيل آلية دفاعية قوامها الكذب على النفس وافتعال الأسباب بهذا الكذب لتبرير ما تأباه النفوس السوية ! .. فإذا كان الغدر وكانت الخيانة والجحود والنكران ليست من السواء ، إلاَّ أنه عزيز على الجانح أن يعترف على نفسه بهذا الانحراف ، فيختلق لجنوحها المعاذير والأسباب والتعلاّت ويدفع نفسه لتصديقها حتى يبعد شبح ما قارفه ، ويطمئن إلى ما هو فيه ، ويعطى ظهره لهاتف الأخلاق ونداء الضمير ، ويهضم ما هو فيه من قبح ودمامة الغدر والخيانة ، ويستسيغ القبح ويستطعمه ، ويعود فيفرزه ؛ لأنه

(*) المال ٨/ ٢/ ٢٠١٠.

يملأ كوامن نفسه ومجدول فى سلوكه ، فلا يرى فى عماه الضرير ما يراه الناس فيه ، ولا ما تنكره الأخلاق عليه ، ولكنه مهما غرق فى التبريرات والتعلاّت ـ لا يهنأ له بال ، ويشعر بينه وبين نفسه بالخزي الذى يسعى إلى مواراته بالتظاهر ، وبالعار الذى يهارى فيه مماراة اليائس الذى يحس مهما أنكر وماري وجادل نفسه أو غيره ، أنه ملتصق به لا يستطيع أن ينزع ثوبه عنه .. لا أمام نفسه ولا أمام الآخرين !

لا يمكن لمثل هذا أن يلجأ إلى شميلة أو سجية الصبر، فهى بعيدة عن متناول ما هو فيه ، ولا أن يأمل فى رجاء لأنه غارق فى حالةٍ أطبقت عليه وقطعت بينه وبين الله ، وبين قيم الحق والجمال ، فلا يجد لنفسه أملا ولا رجاءً يخرجه مما اختار بغدره أن يهبط إليه !

هذه الصورة مشهودة متكررة فى حياة الناس ، فمع وجود القيم والأخلاق وشيم الصدق والأمانة والوفاء ، وجدت وستظل توجد خصال الغدر والجحود والخيانة والنكران ، وهذا الواقع مهما كان فيه من مرارة إلا أنه واقع ماثل ، لا انتصر به غادر خائن جاحد ، ولا انسحق به مغدور به ، فألمه يتناقص ولا يزيد ، أو كما قيل : يولد كل شيء صغيرًا ثم يكبر ، إلاّ النوازل فهى تولد كبيرة ثم تصغر وتتضاءل بمرور الزمن حتى تتلاشى .. بينما فى المقابل ، لا تلاشى لأنه مناقض للحالة الغارقة فى بئر الخيانة ، المستسيغة للقبح والدمامة ، المتوارية أو الراغبة فى التوارى بسوء صنيعها عن عيون وسهام انتقادات الناس التى ترى ما يحاول مواراته ، وتدرك حقيقة ما يحاول الخداع فيه !!

من شهور كتبت تلميحًا لا تصريحًا ، عن خيانة وغدر زميل قابل ما قدم إليه بالجحود والنكران ، وقابل الوفاء والإخلاص ، بالغدر والخيانة .. ولكنه لم

ينعم فى النهاية بغدره ، ولا فاز بخيانته ، وخسر كل شىء وخسر معه احترام الناس ! لم يكن غريبًا وهو غارق فى الحالة ألا يرى ما فيها من قُبح ، وأن يختلق لفعلته المعاذير والتعلاّت ، ولكنه لابد يدرك فيما بينه وبين نفسه أنه يراوغها ويكذب عليها ليتجمل أمام نفسه وأمام الناس !

حتى الندم ، هو الآخر نقطة فارقة ، لا يعرفها الغارق فى بئر الغدر والخيانة ، فهو فى سعيه لإساغة ما هو فيه ، يقاوم ـ بالتبرير الكاذب ـ الإقرار بالخطأ ، ويصادر الشعور بالندم ، مع أنه هو الذى يمسح جراح الخطيئة ، ويعيد النفس الجانحة إلى رشدها ، ويردها إلى الحق الذى هجرته وأنكرته ، فتغدو من ثم حالته حالة مستعصية لا شفاء منها !

يقال فى الأمثال العامية : «يا بخت من بات مظلوم ولا بات ظالم» !! ظنى أن هذا التعبير هو استلهام بالسليقة والفطرة البسيطة للآية القرآنية الكريمة : ﴿ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء ١٠٤] .. وهو استلهام ينطوى بالفطرة على رؤية صادقة لواقع الحياة الذى يعطى الرجاء ولا يقطع الأمل فى انبلاج الصبح ووأد الباطل ودمغ الخطيئة بما تستحقه !

لا يوجد فى الدنيا بكل مغرياتها ما يقابل قيمة تصالح الإنسان مع نفسه .. لقد قال المسيح عليه السلام : «لن تربح شيئًا إذا كسبت كل شىء وخسرت نفسك» .. احترام النفس قيمة لا تعادلها كل المغانم ، ولا يعوضها انطلاء حيل الخديعة على الناس ، فكل إنسان أدرى بنفسه ؛ لذلك قال العقاد : «إننى أحرص على احترامى لنفسى قبل أن أحرص على احترام الناس لى» .. هذه مقولة بالغة الحكمة ، لأن الناس قد تنخدع عن الواقع فينطلى عليها الكذب أو تتوهم

الصدق والنظافة ، بينما الواقع غير ما توهمته أو انطلى عليها .. هذا الواقع هو الغناء الحقيقى الذى جعل العقاد يقول : «قيمتك فى نفسك» .. ولأن يقول فى إحدى أثيراته : إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح ، وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن ، بعض الكراهات خير لك من بعض المحبات !!!

*****